الفصل السابع

التربية وحوار الثقافات فى عصر العولمة

- تمهيد.
- المقصود بالثقافة.
- ثقافة الفرد وثقافة المجتمع.
- الثقافة كأحد مقومات الفكر الإنسانى.
- التربية وحوار الثقافات فى عصر العولمة.

تمهيد:

فى أغسطس سنة ١٩٤٥، نشر نص مشروع قانون أساسى لمنظمة سُميت «منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة» (اليونسكو UNESCO)، وقد حددت الفقرة الأولى غرض هذه المنظمة، فى الآتى:

«١ – أن تنمى وترعى الفهم المتبادل والتقدير المتبادل لحياة شعوب العالم وثقافتها، وفنونها، ودراستها الإنسانية وعلومها، باعتبار ذلك أساسًا للتنظيم الدولى الفعال، والسلام العالمى.

٢ – أن تتعاون فى إمداد جميع الشعوب بحصيلة العالم من المعرفة والثقافة من أجل خدمة الحاجات البشرية المشتركة، وفى ضمان اسهامها فى الاستقرار الاقتصادى، والأمن السياسى، ورغد العيش بوجه عام، لشعوب العالم».

ويعلق (ت.س. إليوت) على لفظة (الثقافة) التى جاءت فى الحديث السابق، فيقول: «إن هذه الكلمة تستخدم عادة بأحد طريقين: إما بنوع من المجاز، عندما يعنى القائل عنصرًا من عناصر الثقافة أو مظهرًا من مظاهرها، (كالفن) مثلا، وإما على أنها نوع من مثيرات الانفعال –أو مخدراته– كما فى الفقرة السابقة»[1]، حيث يبنى (إليوت) وجهة نظره السابقة، على أساس أن غالبية الناس لا يفكرون بعمق فى معنى كلمة (الثقافة)، قبل استعمالها.

ومع تقديرنا لوجهة نظر (إليوت) فيما يختص بطريقة استعمال (الثقافة) كنوع من مثيرات الإنفعال، فمن شبه المؤكد أن الثقافة مهمة جدا، إذ تتوقف عليها معرفتنا بالآخرين. بمعنى، كى نفهم الآخرين، علينا أن نفهم ثقافتهم من خلال كتبهم وصحفهم وأفلامهم وإذاعتهم..إلخ، وبذا يمكن توطيد العلاقات معهم، وتأكيد جوانب التفاعل، وتحديد نقاط التلاقى، وتوضيح دلالة الميول والآمال المشتركة، وغير ذلك من المضامين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية..إلخ، التى تجتمع تحت مظلتها طموحات واحتياجات الإنسان، فى كل زمان ومكان.

حقيقة، قد يستخدم السياسيون لفظة (الثقافة) إستخدامًا سياسيًا، فتبدو وكأنها تمثل بالفعل مثيرات أو مخدرات للإنفعال الإنسانى. ورغم ذلك، فإن هذا الأمر ينتفى بدرجة كبيرة، إذا إتسمت الثقافة بالعلمية الخالصة، وذلك ما يجب أن تسعى مناهج التعليم العام بعامة، ومناهج التعليم الجامعى بخاصة، إلى تأصيله، حسب ما يظهره الحديث التالى:

أولا : المقصود بالثقافة :

بادىء ذى بدء ينبغى الإشارة إلى أن هناك نمطا عاما للتغيير طرأ على لفظة « ثقافة » ويمكن استخدام هذا النمط كخارطة يمكن الإسترشاد بها فى معرفة التغيرات العريضة فى الحياة والفكر، وفى اللغة أيضًا. وفى محاولة من « وليامز » فى كتابه (الثقافة والمجتمع ١٧٨٠ - ١٩٥٠) إكتشاف أن فكرة الثقافة، واللفظة ذاتها فى إستعمالاتها الحديثة العامة، برزتا فى التفكير الإنجليزى فى الفترة التى نصفها عادة بالثورة الصناعية، أوضح التغير الذى حدث لمدلول ومفهوم الثقافة.

وفى هذا الصدد يقول « وليامز » :

كان معنى الثقافة يدل أساسًا على « إتجاه النمو الطبيعى » ثم أصبح معناه « عملية تدريب إنسانى ». غير أن هذا الإستخدام الأخير، الذى كان يعنى تهذيب شىء ما فى العادة، تغير إلى أن أصبحت لفظة « ثقافة » تعنى شيئًا مستقلا فى حد ذاته، وذلك فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وأصبح معناها أولا « حالة أو عادة عقلية عامة » ترتبط إرتباطًا وثيقًا بفكرة الكمال الإنسانى. وغدت تعنى ثانيًا « الحالة العامة للتطور الفكرى فى مجتمع بأسره ». والمعنى الثالث هو « الكيان العام للفنون ». وفى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت تعنى معنى رابعًا هو « طريقة شاملة للحياة ماديه، وعقلية، وروحية »[٢].

ولقد تطور معنى « الثقافة » فأصبحت بأوسع معانيها « البيئة المصطنعة بأكملها، التى يخلقها الإنسان بتأثير عمله في العالم الخارجى، فتشمل الأدوات والآلات والأعمال المسماه بالفن، كما تشمل أدوات الفكر، والكلمات، والمفاهيم، والتقنيات العقلية، والحساب، والمهارات ».

فى ضوء ما تقدم، الثقافة « هى كل ما ترسب فى ذاكرة الفرد (الثقافة الفردية)، أو فى الذاكرة المشتركة لأفراد المجتمع (كما يتجلى فى المكتبات والمتاحف والمعاهد والأكاديميات)، وذلك لآثار الخبرات والتجارب السابقة »[٣].

وهناك من يرى « أن الثقافة جزء لا يتجزأ من الحياة سواء أكانت على صعيد الوعى أم على صعيد اللاشعور، وسواء أكانت فردية أم جماعية. وهى تمثل الخلاصة الحية لمنجزات الماضى والحاضر، التى ترتب عليها عبر القرون نظام من القيم والتقاليد والأذواق تتحدد به عبقرية الشعب المعنى. وهى لابد إذن أن تطبع بطابعها جهود البشر الاقتصادية. وأن تحدد أسباب القوة والضعف فى عملية الإنتاج فى أى مجتمع »[٤].

أما تعريف الثقافة التالى، لقد جاء فى « المؤتمر العالمى للسياسات الثقافية » الذى عقد فى مدينة (مكسيكو سيتى) سنة ١٩٨٢ : « الثقافة يمكن أن تعرف الآن بأنها مجموع

السمات المركبة التى يتميز بها مجتمع من المجتمعات، أو أية مجموعة اجتماعية روحيًا وماديًا وفكريًا وعاطفيًا. وهى لا تشمل الفنون والآداب وحدها، ولكن تشمل أيضًا أساليب الحياة، وحقوق البشر الأساسية، وموازين القيم والتقاليد، والمعتقدات»[٥].

أيضًا، يمكن تعريف الثقافة فى كلمات مختصرة، بأنها «ذوب المعرفة وذوب التاريخ. فهى ذوب ما نقرأ، وما نرى ونتأمل ونعيش ونتوارث. هى كل ذلك فى أعظم صورة، إذ يجرى عليها التثقيف، أى التنقية والإمتصاص والاستيعاب، والإبداع أقوالا وأفعالا وسلوكًا»[٦].

مما تقدم، يظهر لنا أن لفظة (الثقافة) غامضة للغاية، وذلك يمثل أزمة حقيقية لدلالات ومضمون الثقافة ذاتها. فمعنى الثقافة من حيث كونها تهذيبًا وتربية لعدد من الأشخاص، يجب أن ينمو بإطراد ولا يتناقص. أيضًا، الثقافة لها معنى آخر يدلل، «على ذلك الطراز من الشعور والفكر الذى يميز شعبًا أو حقبة ككل.

وهى بالتالى صفة فكرية وروحية. وإذا ما تجاهلنا موضوع الارستقراطية الغامض، ففى إمكاننا أن نقول، دون خوف، من تناقض أو مغالطة، أن درجة عالية من التهذيب الشخصى فى ذروة المجتمع، يمكن أن تتعايش جنبًا إلى جنب، مع حالة خفيضة وغير لائقة من الثقافة، كمظهر بارز من مظاهر الحياة الاجتماعية»[٧].

وننوه إلى أن فكرة الديمقراطية تحوى من الغموض، دون شك، ما تحويه كلمة الارستقراطية، لذلك فإن ظهور ثقافة مميزة لمجتمع حضارى متحضر بعينه، إلى حيز الوجود، يتطلب أن تتطور هذه الثقافة، لا على هامات دعائم سياسية واقتصادية، بل من داخلها المادى نفسه.

وعلى أية حال، مهما كان غموض المضامين بالنسبة للفظة الثقافة، فإنه يمكن للتعليم المؤثر الوصول إلى حل للمشكلة الثقافية من حيث التحديد والمضمون، إذ يسهم التعليم فى تكوين العقل الناضج الذى يستطيع استقراء الحقائق، ويترك طابعًا مميزًا فى شخصية الفرد وفكره، ويضع توكيدًا مبالغًا فيه على العمل ونتائج النجاح فيه.

بمعنى؛ يمكن للتعليم وضع حدود فاصلة قاطعة للفظة الثقافة، عندما يصبغها بالفكر العلمى الخالص.

ومن جهة أخرى، تخص الثقافة الإنسان أولا وأخيرًا، وحيث إن الإنسان نفسه كائن حى، له وجود متكامل، بحيث لا يمكن فصل جسمه عن عقله، ولا يمكن وضع حدود فاصلة بين ميوله وحاجاته وانفعالاته واستعدادته.. إلخ، لذلك فإن التقسيم المصطنع للثقافة، فى صورة: ثقافة علمية وثقافة أدبية، أصبح أمرًا غير مرغوب فيه.

ومما يؤكد ما تقدم، معادلة معنى الثقافة إلى معادلة معنى المعرفة، حيث نجد أنفسنا أمام المعادلة الرمزية ذات البناء الصورى، حيث العلم مدلول، والفن دالة، والتقدم مرجعهما.

إذًا، من منطلق ثقافة العلم نفسه، فإن الثقافة لا توصد بابها أمام العقل العلمى الموضوعى، المتساءل دوما، والمنقب بلا أناة، وبذلك تتحقق إمكانية ترتيب المسلمات من جديد، بهدف إقامة الآراء اليقينية، بدلا من الآراء الظنية[٨].

ويجدر التنويه إلى أن الإنسان الحر هو الأساس فى تقدم العلم، لذا ينبغى على الإنسان أن يعمل فى كنف مؤسسة علمية ثقافية، وأن يكون هو نفسه مثقفًا.

والحقيقة، الثقافة- مهما كانت تعريفاتها أو توجهاتها- فإن تجلياتها تظهر واضحة فى تعريف الفرد بالتصورات المهمة عن المجتمع والتاريخ. وفى توعية الفرد بطبيعة تكوين وتركيب أو بنية الحياة الاجتماعية، التى تتجاوز مجال التفاعلات السياسية، إلى حدود وشروط ومضامين العلم الاجتماعى»[٩].

تأسيسًا على ما تقدم، يمكن القول بدرجة كبيرة من الثقة: إن التزاوج -بل التأومة- بين المعرفة والعلم والتكنولوجيا والثقافة، حقيقة واقعة، وليس فى ذلك أدنى غرابة، فإنها من صنع الإنسان، وتحقق مطالبه، فى الوقت نفسه، بدرجة تتوقف على وضعه الاجتماعى أو مستواه المادى.

ثانياً: ثقافة الفرد وثقافة المجتمع:

إن ارتباطات لفظة (الثقافة) تختلف بحسب ما نعنيه، أهى نمو الفرد، أم الطبقة، أم المجتمع بأسره، لذلك ظهرت وجهة نظر ترى أن «ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة، وأن ثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع كله، الذى تنتمى إليه تلك الفئة أو الطبقة، وبناء على ذلك فإن ثقافة المجتمع هى الأساسية»[١٠].

وعلى الرغم من وجاهة الرأى السابق، فإن الواجب يقتضى التنويه إلى الدور المهم للمثقف فى بناء ونمو ثقافة المجتمع. فالمثقف ليس كسائر الأفراد العاديين، وإنما هو الفرد الذى لديه القدرة على قيادة حركة المجتمع الثقافية، فيطورها وينحو بها نحو التحديث.

وفى المقابل، عندما يرفض المجتمع هؤلاء المثقفين، أو يلفظ أعمالهم وتوجهاتهم، بسبب تمسك المجتمع بالفكر السلفى، وتقوقعه على ذاته، متشرنقًا تحت عباءة القديم، فإن الحركة الثقافية غالبًا ما ينطفىء بريقها، وتتمحور حول المأثورات فقط. أيضًا، تظهر المشكلة السابقة حادة، عندما يحدث صدام بين المثقفين والسلطة، وخاصة إذا كانت أفكار المثقفين مناهضة لأسلوب وطريقة الحكم.

إذًا، العلاقة بين الفرد المثقف وثقافة المجتمع نفسه، تبرز أن الفرد المثقف لايستطيع أن يبتكر ثقافيًا إذا كان المناخ الثقافى فى المجتمع مقيدًا بأغلال، أو مهترءًا بأفكار لا تناسب العصر. وفى المقابل، فإن قوة الثقافة فى المجتمع، تتوقف على الجهود الأمينة والصادقة لأفراده المثقفين.

ومن جهة أخرى، يوجد إرتباط وثيق الصلة بين الثقافة والتنمية الشاملة بجميع أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتعليمية..إلخ. فالثقافة ليست مجرد وسيلة لخدمة أهداف بعينها، بل إن دورها الحقيقى والفعلى يشكل الأساس الاجتماعى للأهداف ذاتها، وبذلك تكون التنمية والاقتصاد هما جزء من ثقافة أى شعب[١١].

تأسيسًا على ما تقدم، فإن من يضع الثقافة فى مواجهة التنمية، إنما يطرح قضية الأصالة والمعاصرة فى ثوب جديد، ويطالب بإعادة فتح باب الاجتهاد، إما لأن الموضوع غدا مستهلكًا، وإما لنقص الاقتناع بنتائج الحوار فيه واللجاج حوله، رغم أنه كان الشغل الشاغل لمفكرى العالم العربى منذ بداية عصر النهضة فى كل بلد عربى[١٢].

أيضًا، يجدر الإشارة إلى أن «التكنولوجيا المتقدمة والاختراعات العظيمة، التى تعمق معنى الزمان، وتزيل حواجز المكان، وتوطد الروابط بين البشر، مجرد أشكال للحضارة الإنسانية الحديثة، أما مضمونها فهو الذى يعمق معنى الوجود الإنسانى، الذى يكفل حقوق الإنسان والضمان الاجتماعى له، كما يسهم فى إحلال الضمير الجماعى محل الضمير الفردى»[١٣]، وذلك يبرز الدور الرائع للثقافة، إذ دونها تكون التكنولوجيا مجرد شكل دون مضمون، وعلى أساسها تتحدد بدقة الأدوار التى يجب أن تتحمل مسئولياتها، والحدود التى يجب أن تقف عندها.

لقد تحمل بعض المثقفين العظماء مسئولية التصدى لهيمنة الآلة وسيطرتها على الإنسان، ورفضوا أن يكون مضمون الآلة ماديًا بحتًا، بحيث يقتل المعانى الجميلة والسامية فى نفس الإنسان، وبحيث يلبد مشاعره وأحاسيسه. إنهم لم يرفضوا الآلة ذاتها، ولكنهم رفضوا أن تكون بعض توظيفاتها، السبب فى تدمير الجانب المعنوى عند الإنسان، أو أن تسلب حقه فى حياة حرة كريمة.

فى ضوء ما سبق ذكره، نقول أنه فى المجتمعات الديمقراطية المستقرة، تكون ثقافة الفرد السبب المباشر فى إزدهار ثقافة المجتمع، كما تؤكد ثقافة المجتمع حرية الفرد فى الإبداع الثقافى المتميز، وبذا لا يمكن وضع حدود فاصلة بين ثقافة الفرد أو ثقافة المجتمع، لأنها يسعيان معًا من أجل تحقيق حياة أفضل للإنسان، فى الحاضر والمستقبل على السواء.

ثالثاً : الثقافة كأحد مقومات الفكر الإنساني:

تمثل المنجزات البشرية لمجتمع ما، الظواهر الثقافية السائدة فى هذا المجتمع. والظواهر الثقافية، قد تتباعد عصورها، وتتنوع مجالات النشاط التى تنتمى إليها، ورغم ذلك، فإنها تجسد المعانى الإنسانية التى يسعى الإنسان إلى تحقيقها من خلال إيمان بفكر وعمل دؤوب. وفى سعى الإنسان لتحقيق المعانى الإنسانية التى تعكسها الظواهر الثقافية، عليه أن يتضامن مع الآخرين، وأن يدرك أمانيهم، وأن يحس بإحساساتهم، وأن يراعى مشاعرهم، وأن تكون نظرته للأمور عاقلة وهادئة، وأن يحسب حسابات المستقبل بوعى، وألا يضحى بالحاضر فى سبيل ماض ولى وذهب فى حال سبيله بشرط أن يستفاد من خبرات الماضى الثمينة، وأن يكون لديه القدرة على إستقراء التاريخ. إذا إستطاع الإنسان أن يفعل ذلك، فسوف يؤكد المعانى الإنسانية التى تتضمنها الظواهر الثقافية، ويثبتها، ويسهم فى تطويرها نحو الأفضل، كلما سنحت الفرصة لذلك.

والسؤال : **ما المنجزات البشرية التى تمثل الظواهر الثقافية؟**

إن كل ما يحيط بنا يمثل المنجزات التى قام بها الأفراد فى سالف الزمان، وفى الوقت الحاضر. دعنا نتأمل المنجزات التى حولنا وندقق فيها، لنعرف أنها تمثل بالفعل ظواهر ثقافية. الأهرامات فى مصر، السور العظيم فى الصين، حدائق بابل المعلقة فى العراق، معبد تاج محل فى الهند، ألا تمثل أعمالا رائعة شامخة، رغم مرور ألوف السنوات عليها. أيضاً، فإن الأعمال العظيمة المحكمة الصنعة السابقة، ألا تثير فى نفوسنا الإعجاب والإجلال والتقدير للإنسان فى مصر والصين والعراق والهند، وألا تجعلنا ندرك شيئًا مهمًا له مغزاه ومعناه، وهو: «لكى يحترم الآخرون ثقافتنا، علينا أن نحترم أولا ثقافتهم».

إذا كان التوضيح السابق قد نقلنا نقلة بعيداً جداً عمرها ألوف السنوات الماضية، فدعنا الآن نأخذ مثالا آخر عمره قريب جداً بالنسبة للمثال السابق. فلنتأمل أعمال **موزارت، وبيتهوفن، وسيد درويش** الموسيقية، لنعرف كيف بدأ (**موزارت**)، فى وضع سيمفونياته الرائعة وهو صبى صغير لم يتجاوز العشرين من عمره، وكيف أبدع (**بيتهوفن**) فى الموسيقى رغم إصابته بالصمم، وكيف أنجز (**سيد درويش**) أعمالا رائعة عظيمة مازالت تعيش فى وجداننا حتى الآن رغم ظروف حياته المعيشية الصعبة آنذاك. إن هذا المثال يوضح لنا أن الإنسان يستطيع أن يبدع، وأن يبتكر فى أى سن، وتحت أى ظروف. وفى إبداعه وإبتكاره، إنما يضيف للبشرية قيماً ثقافية تنهل منها الأجيال فى حياته، وبعد مماته. وقد تظل هذه القيم الثقافية باقية، ومرتبطة بأسماء أصحابها، لأنها تكون كعلامة فى الطريق بالنسبة لمجالها.

إذا كان التوضيح الثانى قد نقلنا نقلة قريبة نسبيًا، إذ إن عمرها الزمنى لايزيد أبعدها عن قرنين مضيا، فدعنا ننظر بعين الاعتبار إلى الأشياء الموجودة من حولنا الآن، وتمثل أنماطًا حياتية نعيش فيها، ونتعامل معها مباشرة. ألم تفزعنا حوادث الإرهاب على (نيويورك) و(واشنطن) التى حدثت فى الحادى عشر من شهر سبتمبر ٢٠٠١. أيضًا، ألم تقلقنا الحرب التى دارت بين إيران والعراق، والتى إستمرت أكثر من سبع سنوات، ثم تنفسنا الصعداء -آنذاك- لوقف القتال بينهما. أيضًا، على مستوى الأحداث التى تحدث يوميًا، ألا تزعجنا عمليات الإرهاب الوحشية التى تقوم بها إسرائيل ضد الفلسطينيين، والا يصيبنا بصدمة قوية الاحتلال العسكرى للعراق، دون مبرر عقلانى. إن ما تقدم، يوضح لنا أن الخلافات والحروب لا تحل المشكلات، وإنما الذى يحلها هو التفاهم من أجل إقرار السلام العادل.

وكمثال آخر، ألا نعيش فى خوف وهلع بسبب تفشى مرض (الإيدز)، ذلك المرض الذى يقضى ويدمر أجهزة المناعة داخل جسم الإنسان، ونعيش الآن فى إنتظار وترقب لما سوف تسفر عنه جهود الأطباء والعلماء فى سبيل القضاء على هذا المرض، أو الوقاية منه على أقل تقدير. أيضًا، ألا نعيش فى ذعر بالغ، بسبب ظهور حالات الإصابة بالجمرة الخمراء فى الولايات المتحدة الأمريكية، التى تسبب الوفاة فى خلال أيام قليلة جداً. ويعود الذعر الذى يجتاح العالم بسبب الجمرة الخمراء، إلى إمكانية تخليق الفيروس المسبب لها، بطريقة كيميائية، ونقله من مكان لآخر، عبر الخطابات والطرود البريدية. إن ما تقدم، يبرز لنا أهمية التمسك بالشرائع الدينية، والمبادىء الخلقية التى تنظم علاقة الإنسان بخالقه، كذا أهمية أن يعيش العالم فى سلام وأمان.

وكمثال ثالث، فإن الظروف المادية الصعبة فى مصر، وتدنى مستوى دخل الفرد، نتج عنهما مظاهر اجتماعية بغيضة. لذا يفتقر الناس إلى التعاون والتضامن كقيم إنسانية ثقافية نبيلة. ولكن إذا حللنا أسباب ما تقدم، نجد أن الزيادة الرهيبة فى عدد السكان تمثل أحد الأسباب الرئيسة لحدوث الظاهرة السابقة، وما ترتب عليها من نتائج خطيرة. لذا، نجد الدولة تسعى جاهدة لتشجيع تحديد النسل.

خلاصة القول، تمثل أفعال وأعمال الناس الظواهر الثقافية التى تسود فى مجتمع هؤلاء الناس. وهذه الظواهر قد تكون إيجابية، فتعمل على بناء المجتمع، وقد تكون سلبية، فتعمل على تدمير المجتمع. وعندما نقول الناس، فإننا نقصد الأفراد العاديين، والأفراد النابهين. وهكذا الحال أيضًا، بالنسبة للعلاقات بين الدول بعضها البعض.

والسؤال : ما دور الأفراد العاديين فى صنع ثقافة المجتمع؟

حقيقة، أن الأفراد النابهين والموهوبين ممن لهم مكتشفاتهم العلمية، وإنجازاتهم التكنولوجية التى تنطوى على منهج علمى دقيق يجسد قيمًا ثقافية رفيعة المستوى،

وأصيلة، كالموضوعية، والدقة، والإتساق المنطقى، والأمانة العلمية، والتعاون، والمثابرة فى إكتشاف الحقيقة، والتفانى حتى الموت، هؤلاء هم الذين سوف تبقى أعمالهم وتخلد.

ورغم ما تقدم، فإن الأعمال العظيمة لهؤلاء العباقرة ما لم تجد المناخ الصحى الملائم ما ظهرت إلى حيز الوجود، وما رأت النور مطلقًا. وهنا يأتى دور الأفراد العاديين، لأنهم يمثلون أولاً وأخيرًا معًا المناخ الذى من خلاله يبدع المبرزون، ويبتكرون. ولعل قصة (**جاليليو**) مازالت ماثلة فى أذهاننا. إذ أنه بسبب إكتشافه لبعض الأجرام السمائية عن طريق التلكسوب الذى صنعه، قد حكم عليه بالموت حرقًا. وهنا قد يقول قائل: ألم يذهب (**جاليليو**) وبقى إكتشافه؟ وأرد عليه وأقول: «إن العلماء كما قلت من قبل يحملون أعمارهم على كفوف أيديهم، ولكن ماذا كان يحدث لو وجد (**جاليليو**) المناخ المناسب؟ فى تصورى، لو حدث ذلك لاستمر (**جاليليو**) فى إبداعه وابتكاره، وإكتشف إنجازات علمية جديدة ربما وفرت على البشرية مئات السنين لمعرفتها بعد ذلك».

كذلك، يتمثل دور الأفراد العاديين فى أن القيم الثقافية التى قد يأتى بها النابهون إنما تعكس آمال وطموحات الأفراد العاديين. كما تتأكد هذه القيم من خلال تفاعل الأفراد العاديين مع بيئتهم المادية والاجتماعية.

وبإختصار، فإن القيم الثقافية التى لا يتذوقها الأفراد العاديون، ولا يشاركون فى تطبيقها فى حياتهم العادية أو إستخدامها فى ممارساتهم المعيشية، لن يكون لها وجود حقيقى وفعال، ولن تصبح أبدًا أحد أركان التراث الثقافى القومى[١٤].

رابعاً : التربية ودور الثقافات فى عصر العولمة :

إن الانفجار المعلوماتى الذى شهدته الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين، صاحبه إمكانية نقل المعرفة من مكان لآخر، عن طريق شبكات إنترنت. ونتيجة طبيعية لذلك، بات أستاذ الجامعة أو الباحث أو الطالب، على السواء، مطالبون بمعرفة الجديد والحديث فى مجالاتهم. أيضًا، لا يستطيع أى فرد أن يقول الآن: «هذا أقصى ما يمكن عمله، لأننى غير قادر، ولم أحصل على غير ذلك»، فالمعرفة متوافرة ومتجددة، ويستطيع الفرد أن ينهل منها ما يشاء، لدرجة أنه ظهر مصطلح جديد، يعرف بالإعياء المعلوماتى.

إن السمة الأكيدة لعالمنا المعاصر، فى أغلب مناحيه، هى التغيير وليس التغير، فإذا أردنا للتعليم أن يأتى بثماره المرجوة، وإذا أردنا للمجتمع أن ينمو، وأن يتقدم، فإننا مطالبون اليوم، عن أى وقت مضى، بتكثيف قدراتنا، وإطلاق المارد من داخلنا، من أجل الخروج من غيبوبة «الاسترخاء»، التى نعيش فيها حاليًا، وخاصة بعد أن اتضحت الصورة وسقطت الأقنعة وإنكشف الزيف، عن حقيقة مؤلمة للغاية، وهى: إن غالبية المناهج -وليست كلها- التى يتم تعليمها، لا تواكب التحديات التى أفرزتها الثورات التى

تحققت فى العلم النظرى والتطبيقى، على السواء. كما أن النسبة الأكبر لتلك المناهج، تمثل هواجس فكر وغيبوبة وهم، لا يصلحان للتعامل فى مجتمع المعرفة.

هذا عن التربية، فماذا عن حوار الثقافات؟ وماذا عن دور التربية فى ضوء الدلالات التى تنبثق عن حوار الثقافات فى عصر العولمة؟

للإجابة عن السؤالين السابقين معًا، نقول:

التعليم والتثقيف يكتسبان مغزى حقيقيًا فقط مع الممارسة. ومن هذا المنظور فإن التعلم يتم فى سياق بناء الديمقراطية والنضال من أجلها وليس العكس.

إذًا، جوهر قضية حوار الثقافات هو تأكيد الديمقراطية كمنهج وقيمة. وأيضًا، جوهر قضية دور التربية فى ضوء ما ينبثق من دلالات نتيجة حوار الثقافات، هو إمكانية أن تغرس الديمقراطية العادات الضرورية لممارستها بنجاح. وهذا النوع من التعلم ممكن وضرورى وحتمى فى كل المجتمعات حتى أكثرها فقرًا وأقلها تقدمًا.

والحقيقة، كلما تعلم الناس وتعلمت القوى السياسية مهارات الديمقراطية وإبجديتها، أمكن وضع أفضل ضمانات ممكنة لنجاح الديمقراطية فى الممارسة، وبذلك يتحقق أفضل حوار للثقافات فى عصر العولمة على أساس الندية المطلقة، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أم على مستوى الدول. ونتيجة لذلك، لا تسيطر ثقافة على أخرى، ولا تهيمن ثقافات الدول الغنية على ثقافات الدول النامية، ولا تغزو ثقافات الدول الصناعية المتقدمة ثقافات الدول الفقيرة وتشوه هويتها أو تحطم تركيبها وتنزعها من جذورها، دون أن يكون لثقافات الدول الفقيرة أية قدرة للدفاع عن ذاتيتها.

وعليه، ينبغى أن يقوم حوار الثقافات على أساس عقلانى وموضوعى، وأن يؤكد -فى الوقت نفسه- أهمية التنوع الثقافى، وأن يبرز أنه لقاء الأنداد، وليس بلقاء الأقوياء مع المستضعفين على الأرض. ولا تقتصر القضية على حوار بين ثقافة دولة متقدمة وثقافة دولة نامية، ليظهر البون شاسعًا بين الإثنين، إذ أن الإختلاف بين ثقافات الدول المتقدمة ذاتها، قد يكون عميقًا وهائلا آنيا. لذلك من المهم بمكانة أن لا يكون حوار الثقافات سببًا مباشرًا لحدوث تصادمات ونزاعات تؤدى إلى منتصر ومهزوم بين الثقافات الواعدة والثقافات الضعيفة، أو تؤدى إلى إنقسامات وتحزبات بين الثقافات القوية، حيث تعمل كل منها على استقطاب الثقافات المهزوزة، التى لا تعتمد على النهج الديمقراطى كأسلوب للهمل والتفاعل والبناء.

إن حوار الثقافات لا يعنى استعراض القوى والعضلات، بقدر ما يعنى لقاءً رائعًا نبيلا، يستفيد منه كل الأطراف، بلا استثناء.

دعنا نأخذ مثالا لتوضيح ما تقدم:

قد تعاني دولة ما من اهتزاز قيمها الثقافية، فى فترة من الفترات، ولكن، لأن هذه الدولة لها زادًا حضاريًا عريضًا، فإنها تستطيع النهوض سريعًا من كبوتها. وفى المقابل، ربما تكون الدولة متقدمة ماديًا وتقنيًا، ولكن ليس لها تاريخًا يعكس قيمًا حضارية أصيلة، لذلك فإن قيم ثقافتها يمكن أن تهتز تحت أى ظرف أو طارئ بدرجة مؤثرة. وعلى أى حال، من خلال الحوار الثقافى الراقى، يمكن تحقيق المصالح المشتركة، وبذلك لن يخسر طرف ويكسب طرف آخر، وإنما يكون المكسب للجميع.

ونتيجة لحوار الثقافات، يمكن تحقيق **المردودات الإيجابية** التالية:

* انبثاق ثقافة سياسية قوية تسهم فى بناء نظام ديمقراطى عالمى.
* تأكيد أهمية قيام نظام سياسى عالمى، دون مساس بالأنظمة القومية، وتأكيد أهمية مشاركة الإنسان بفاعلية فى بناء هذا النظام.
* تقديم معلومات دقيقة عن المشكلات ذات الصبغة العالمية.
* توضيح جدوى التلامس مع السياسة العالمية الخاصة بالشئون العامة، والتى تسهم فى قيادة حركة إصلاح الأحوال المعتلة فى أى بلد من البلاد، دون أن يحرم ذلك أية دولة من تحمل مسئولية الإصلاح، إذا كان لديها القدرة على تحقيق ذلك.
* إحترام حقوق الإنسان فى كل زمان ومكان.
* نسبية حلول القضايا المطروحة وتغيراتها وتحولها مع تحولات المجتمع والاقتصاد والمعرفة.
* التطرف وربما العنف، نتيجة طبيعية للذهنية التبسيطية، التى يعتقد أصحابها أن أفكارهم هى الصحيحة والرائعة، ودون ذلك يكون السبب فى تدمير المجتمع وخرابه.
* غلبة الفكر المطلق على القطاعات الشابة من الطبقة الوسطى الحديثة.
* الحل الفعال للمشكلات الثقافية للديمقراطية، قد لا يكمن فى الثقافة ذاتها أو آلياتها، مثل: التعليم والتثقيف، رغم ضرورتهما، إذ يستحيل تعليم وتثقيف أى شخص يعتقد أنه لا يرغب فى -أو لن تسنح له فرصة- ممارسة ما يتعلمه.

فى ضوء ما تقدم، يتمثل **دور التربية** فى تحقيق مردودات حوار الثقافات آنفة الذكر، فى الآتى:

* بناء أدوات التقويم الاجتماعى، وتصميم آليات قياس الرأى العام، للوقوف على ما يمكن تحقيقه من مردودات إيجابية على المستوى المحلى، وبخاصة المردودات التى ترتبط بتفعيل دور التعليم.
* وضع الخطوط العريضة للجدارة الثقافية، التى تسهم فى تطوير أنماط الاتصال السائدة، والانتقال بالعادات والتقاليد إلى الأفضل، وتحقيق المزيد من الانفتاح الثقافى على العالم، وتعزيز التطوير التقنى والمعلوماتى، وتعزيز السلوك العام والارتقاء به.

* تأكيد أهمية البعد الأمنى، الذى على أساسه يمكن حماية المجتمع المحلى والعالمى من الأخطار الخارجية والداخلية. ويمكن تحقيق ذلك، من خلال تحديد الأسباب التى تحول دون تحقيق السلام، ووضع الأساليب المناسبة لمقاومة أسباب التطرف والإرهاب.

* تصميم خريطة للتقويم البيئى، يمكن إستخدامها فى تطوير أساليب إنتاجية جديدة، وحماية البيئة من خطر التلوث، وتطوير المناطق المحرومة من الخدمات، التى تسهم فى قيام حياة إنسانية وحيوانية ونباتية صحيحة، وعلى أسس علمية بيئية سليمة.

* تحديد جوهر المشكلات الاجتماعية التى تعانى منها الدول النامية، ومعرفة كيفية الاستفادة من حوار الثقافات فى وضع الحلول الجوهرية والحاسمة لحل هذه المشكلات.

* إبراز أن منظومة القيم المجتمعية الراهنة -فى الدول الغنية والفقيرة على حد سواء- ليست فى مجموعها إيجابية على طول الخط، ورغم ذلك، فإن إيجابياتها المهمة تتجلى فى التجديد الشامل لتكوينها الأخلاقى.

* أهمية التوصل إلى مزيج خلاق بين القيم الدينية والحضارية الموروثة مع القيم العقلانية والإنسانية التى تميز مشروع الحداثة.

* دور الطبقات الوسطى الحديثة فى إعادة المجتمع إلى التوازن والرقى الأخلاقى، بشرط ألا تتضمن هذه الطبقات المتطرفين الذين يقفون عقبة كؤود فى تحقيق التطور الإيجابى للمجتمع المدنى.

* جميع مشكلات المجتمع، التى تهم الملايين وتؤرقهم، لها حلول فاعلة، إذا خلصت النوايا، ووجد الحزم والصدق والسلوك السوى، وإذا تخلص الناس من الأمراض الاجتماعية المزمنة، مثل: الوصولية والنفاق.

* أهمية وجود مرجعية دولية مقارنة تسعى لتحقيق:

- تعظيم القدرة على المبادرة والإبداع والاستجابة المستمرة للتحديات الداخلية والخارجية.
- تحقيق التكيف والتعلم المستمرين تماشيًا مع المستجدات والمتغيرات المحلية الدولية.
- الاستنهاض والتعبئة الشاملة للطاقات الكامنة والقدرات التنافسية فى إطار توظيف القدرات الفكرية والمعرفية.